جـدليـة الأدب والـذهـب

المقـامـة المضيـريـة(*)

من مقامات أبي الفضل بـديع الزمـان الهمـذانـي

I. النـــص

حدثنا عيسى بن هشام قال: كنت بالبصرة ومعي أبو الفتح الاسكندري رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه. والبلاغة يأمرها فتطيعه. وحضرنا معه دعوة بعض التجّار فقدّمت إلينا مضيرة تثني على الحضارة. وتترجرج في الغضارة. وتؤذن بالسلامة. وتشهد لمعاوية رحمه الله بالإمامة. وفي قصعة يزل عنها الطرف. ويموج بها الظرف. فلما أخذت من الخوان مكانها. ومن القلوب أوطانها. قام أبو الفتح الاسكندري يلعنها وصاحبها. ويمقتها وآكلها. ويثلبها وطابخها. وظننا ه يمزح فإذا الأمر بالضد. وإذا المزاح عين الجد. وتنحى عن الخوان. وترك مساعدة الإخوان. ورفعناها فارتفعت معها القلوب. وسافرت خلفها العيون. وتحلبت لها الأفواه. وتلمظت الشفاه. واتقدت لها الأكباد. ومضى في إثرها الفؤاد. ولكنا ساعدناه على هجرها. وسألناه عن أمرها. فقال: قصتي معها أطول من مصيبتي فيها. ولو حدثتكم بها لم آمن المقت. وإضاعة الوقت. قلنا: هات. قال: دعاني بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد. ولزمني ملازمة الغريم. والكلب لأصحاب الرقيم. إلى أن أجبته إليها وقمنا فجعل طول الطريق يثني على زوجته. ويفديها بمهجته. ويصف حذقها في صنعتها. وتأنقها في طبخها ويقول: يا مولاي لو رأيتها. والخرقة في وسطها. وهي تدور في الدور من التنور إلى القدور. ومن القدور إلى التنور. تنفث بفيها النار. وتدق بيديها الأبزار. ولو رأيت الدخان وقد غبر في ذلك الوجه الجميل. وأثر في ذلك الخد الصقيل. لرأيت منظرا تحار فيه العيون. وأنا أعشقها لأنها تعشقني. ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته. وأن يسعد بظعينته. ولا سيما إذا كانت من طينته. وهي ابنة عمّي لحًا. طينتها من طينتي. ومدينتها من مدينتي. وعمومتها عمومتي. وأرومتها أرومتي. لكنها أوسع مني خُلُقاً، وأحسن خَلْقاً. وصدعني بصفات زوجته. حتى انتهينا إلى

(*) تحقيق محمد عبده.

محلته. ثم قال: يا مولاي ترى هذه المحلة. هي أشرف محال بغداد. يتنافس الأخيار في نزولها. ويتغاير الكبار في حلولها. ثم لا يسكنها غير التجار. وإنما المرء بالجار. وداري في السُّطة من قلادتها. والنقطة من دائرتها. كم تقدّر يا مولاي أنفق على كل دار منها. قله تخمينا. إن لم تعرفه يقينا. قلت: الكثير. فقال: يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط. تقول الكثير فقط. وتنفس الصعداء. وقال سبحان من يعلم بالأشياء. وانتهينا إلى باب داره. فقال: هذه داري كم تقدر يا مولاي أنفقت على هذه الطاقة. أنفقت والله عليها فوق الطاقة. ووراء الفاقة. كيف ترى صنعتها وشكلها. أرأيت بالله مثلها. انظر إلى دقائق الصنعة وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار. وانظر إلى حذقة النجار في صنعة الباب. اتخذه من كم. قل: ومن أين أعلم. هو ساج من قطعة واحدة لا مأروض ولا عفن. إذا حرّك أنّ. وإذا نقر طنّ. من اتخذه يا سيدي اتخذه أبو إسحاق بن محمد البصري وهو والله نظيف الأثواب. بصير بصنعة الأبواب. خفيف اليد في العمل. لله در ذلك الرجل. بحياتي لاستعنت إلاّ به على مثله. وهذه الحلقة تراها اشتريتها في سوق الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير معزية. وكم فيها يا سيدي من الشبه فيها ستة أرطال وهي تدور بلولب في الباب. بالله دورها. ثم انقرها وابصرها. وبحياتي عليك لا اشتريت الحلق إلاّ منه فليس يبيع إلاّ الأعلاق. ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال: عمرك الله يا دار. ولا خربك يا جدار. فما أمتن حيطانك. وأوثق بنيانك. وأقوى أساسك. تأمل بالله معارجها وتبين دواخلها وخوارجها. وسلني: كيف حصلتها وكم من حيلة احتلها. حتى عقدتها. كان لي جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال ما لا يسعه الخزن. ومن الصامت ما لا يحصره الوزن. مات رحمه الله وخلف خلفا أتلفه بين الخمر والزمر. ومزقه بين النرد والقمر. وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار. إلى بيع الدار. فيبيعها في أثناء الضجر. أو يجعلها عرضة للخطر. ثم أراها. وقد فاتني شراها. فأنقطع عليها حسرات. إلى يوم الممات. فعمدت إلى أثواب لا تنض تجارتها فحملتها إليه. وعرضتها عليه. وساومته على أن يشتريها نسية. والمدبر يحسب النسية عطية. والمتخلف يعتدها هدية. وسألته وثيقة بأصل المال ففعل وعقدها لي. ثم تغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله تزرق فآتيته فاقتضيته. واستمهلني فأنظرته. والتمس غيرها من الثياب فأحضرته. وسألته أن يجعل داره رهينة لدي. ووثيقة في يديّ. ففعل ثم درجته بالمعاملات إلى بيعها حتى حصلت لي بجد صاعد. وبخت مساعد. وقوة ساعد. ورب ساع لقاعد. وأنا بحمد الله مجدود. في مثل هذه الأحوال محمود. وحسبك يا مولاي أني كنت منذ ليال نائما

في البيت مع من فيه إذ قرع علينا الباب. فقلت من الطارق المنتاب. فإذا امرأة معها عقد لآل. في جلدة ماء ورقة آل تعرضه للبيع. فأخذته منها أخذة خلس. واشتريته بثمن بخس. وسيكون له نفع ظاهر. وربح وافر. بعون الله تعالى ودولتك. وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدي في التجارة. والسعادة تنبط الماء من الحجارة. الله أكبر لا ينبئك أصدق من نفسك. ولا أقرب من أمسك. اشتريت هذ الحصير في المناداة. وقد أخرج من دور آل الفرات. وقت المصبادرات وزمن الغارات. وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد. والدهر حبلى ليس يدري ما يلد. ثم اتفق أني حضرت باب الطاق. وهذا يعرض في الأسواق. فوزنت فيه كذا وكذا دينارا. تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه فهو عظيم القدر. لا يقع مثله إلاّ في الندر. وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصيري فهو عمله وله ابن يخلفه الآن في حانوته لا يوجد أعلاق الحصر إلاّ عنده فبحياتي لا اشتريت الحصر إلاّ من دكانه فالمؤمن ناصح لإخوانه. لا سيما من تحرّم بخوانه. ونعود إلى حديث المضيرة. فقد حان وقت الظهيرة. يا غلام الطست والماء. فقلت: الله أكبر ربما قرب الفرج. وسهل المخرج. وتقدم الغلام. فقال: ترى هذا الغلام. إنه روميّ الأصل عراقيّ النشء. تقدم يا غلام واحسر عن رأسك. وشمر عن ساقك. وانض عن ذراعك. وافترّ عن أسنانك. وأقبل وأدبر. ففعل الغلام ذلك. وقال التاجر: بالله من اشتراه. اشتراه أبو العباس. من النخاس. ضع الطست. وهات الإبريق. فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلبه وأدار فيه النظر ثم نقره. فقال: انظر إلى هذا الشبه كأنه جذوة اللهب. أو قطعة من الذهب. شبه الشام. وصنعة العراق. ليس من خلقان الأعلاق. قد عرف دور الملوك ودارها. تأمل حسنه وسلني: متى اشتريته. اشتريته والله عام المجاعة. وادخرته لهذه الساعة. يا غلام الإبريق. فقدمه. وأخذه التاجرفقلبه. ثم قال: وأنبوبه منه. لا يصلح هذا الإبريق إلاّ لهذا الطست. ولا يصلح هذا الطست إلاّ مع هذا الدست. ولا يحسن هذا الدست إلاّ في هذا البيت. ولا يجمل هذا البيت إلاّ مع هذا الضيف. أرسل الماء يا غلام. فقد حان وقت الطعام. بالله ترى هذا الماء ما أصفاه أزرق كعين السنور. وصاف كقضيب البلور. استقي من الفرات. واستعمل بعد البيات. فجاء كلسان الشمعة. في صفاء الدمعة. وليس الشأن في السقاء. الشأن في الإناء. لا يدلك على نظافة أسبابه. أصدق من نظافة شرابه. وهذا المنديل سلني عن قصته. فهو نسج جرجان. وعمل أرجّان. وقع إليّ فاشتريته فاتخذت امرأتي بعضه سراويلا. واتخذت بعضه منديلا. دخل في سراويلها عشرون ذراعا. وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعا. وأسلمته إلى مطرّز حتى صنعه كما تراه وطرّزه. ثم رددته من السوق. وخزنته في

الصندوق. وادخرته للظراف. من الأضياف. لم تذله عرب العامة بأيديها. ولا النساء لمآقيها. فلكل علق يوم. ولكل آلة قوم. يا غلام الخوان. فقد طال الزمان. والقصاع. فقد طال المصاع. والطعام فقد كثر الكلام. فأتى الغلام بالخوان. وقلبه التاجر على المكان. ونقره بالبنان. وعجمه بالأسنان. وقال: عمر الله بغداذ فما أجود متاعها. وأظرف صناعها. تأمل بالله هذا الخوان وانظر إلى عرض متنه. وخفة وزنه. وصلابة عوده وحسن شكله. فقلت: هذا الشكل. فمتى الأكل. فقال: الآن. عجل يا غلام الطعام. لكن الخوان قوائمه منه. قال أبو الفتح: فجاشت نفسي وقلت. قد بقي الخبز وآلاته. والخبز وصفاته.

والحنطة من أين اشتريت أصلا. وكيف اكترى لها حملا. وفي أي رحى طحن. وإجّانة عجن. وأي تنور سجر. وخباز استأجر. وبقي الحطب من أين احتطب. ومتى جلب. وكيف صفف حتى جفف. وحبس حتى يبس. وبقي الخباز ووصفه. والتلميذ ونعته. والدقيق ومدحه. والخمير وشرحه. والملح وملاحته. وبقيت السكرجات من اتّخذها. وكيف انتقدها. ومن استعملها ومن عملها. والخلّ كيف انتقى عنبه. أو اشترى رطبه. وكيف صهرجت معصرته. واستخلص لبّه. وكيف قيّر حبه. وكم يساوي دنّه. وبقي البقل كيف احتيل له حتى قطف. وفي أي مبقلة رصف. وكيف تؤنق حتى نظف. وبقيت المضيرة كيف اشتري لحمها. ووفي شحمها. ونصبت قدرها. وأججت نارها. ودقت أبزارها. حتى أجيد طبخها وعقد مرقها. وهذا خطب بطم. وأمر لا يتم. فقمت. فقال: أين تريد. فقلت: حاجة أقضيها. فقال: يا مولاي تريد كنيفا يزري بربيعي الأمير. وخريفي الوزير. قد جصص أعلاه وصهرج أسفله وسطح سقفه وفرشت بالمرمر أرضه. يزلّ عن حائطه الذرّ فلا يعلق. ويمشي على أرضه الذباب فيزلق. عليه باب غيرانه من خليطي ساج وعاج. مزدوجين أحسن ازدواج. يتمنى الضيف أن يأكل فيه. فقلت: كل أنت من هذا الجراب. لم يكن الكنيف في الحساب. وخرجت نحو الباب. وأسرعت في الذهاب. وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح يا أبا فتح المضيرة. وظن الصبيان أن المضيرة لقب لي فصاحوا صياحه. فرميت أحدهم بحجر. من فرط الضجر. فلقي رجل الحجر بعمامته. فغاص في هامته. فأخذت من النعال بما قدم وحدث. ومن الصفع بما طاب وخبث. وحشرت إلى الحبس. فأقمت عامين في ذلك النحس. فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت. فهل أنا في ذا يا آل همذان ظالم. قال عيسى بن هشام: فقبلنا عذره. ونذرنا نذره. وقلنا قديما جنت المضيرة على الأحرار. وقدمت الأراذل على الأخيار.